لغة العرب

مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية

الجزء ١٠ من السنة ٣ عن جمادى الاولى سنة ١٣٣١ = نيسان ١٩١٣

الكتابة في العراق *

Aperçu historique sur l'écriture arabe, et principalement en Mésopotamie.

تمهيد

اثبت اليوم علماء البحث والتنقيب ان الكلدانيين سكان وادي الرافدين دجلة والفرات هم اسبق الاقوام الى وضع الكتابة على طريقة الاهجئة او المقاطع . ثم ماعتم ان انتشر اسلوبهم بين اظهر الاشوريين لسهولته فاستطار بين الاجبال المنبثة في شمالي ارمينية وشرقيها . ثم بين الامم المتوطنة ديار ماذية وشوشن وفارس . ولم يزل في انتشار ، وامتداد وعبار ، حتى عصور النصرانية الاول .

* كتب الينا من النجف حضرة الاديب « عش » مقالة في « الكتابة في العراق » فوجدناها مؤلفة من قسمين : الاول منهما يبحث عن الكتابة والخط قبل الاسلام . وقد اتى فيها الكاتب آثار من كتب في هذا البحث قبل المكتشفات العصرية فجاء كلامه غير واف بالمقصود في هذا العهد ولهذا لم ننبته في هذه المجلة مجتزئين بالاشارة اليه . والقسم الثاني يبحث عن الخط والكتابة بعد ظهور دين العباس وهو الذي ندرجه في العدد القادم وفيه عدة محاسن قلما تجدها في كتاب واحد . ولهذا توجه الانظار اليه قبل اثباته . على ان تقسيم هذه المقالة على هذا الوجه راجع الى حضرة الفاضل « عش » وقد اخذنا منه ايضاً بعض العبارات وبعض الاقوال فاقتضى التنبيه اقراراً بفضله واعطاء لكل ذي حق حقه .

هذا مجمل مايقال في هذا الباب الواسع المجال ، اوسع في هذا الموضوع الخطير البال . ولهذا يتمثل لك خيال وادي السلام بصورة شيخ جليل هو ابو الكتابة والكتب والكتبة ، بيده قلم تتساقط منه رشاش مداده على الطاباق والرق والورق والطرق والجدران ماخلد ذكر امهات مدن العراق ابد الدهر . ومن هذه الحواضر اور « التي تعرف اليوم باسم المقير وهي مهجر ابراهيم الخليل » واريدو « اي ابو شهرين ومعناها ذوالبلدتين » واورك « الوركاء » ونيبور « نفر » واما « جوخي » ومارو « ام العقارب » ونيسي « دريم اودليهم » ولجش اي تلو « المقصورة عن تل اللوح » وسبارة اوسفارة « البوحبة » ولارسا « سنكرة » وبورسبا « برس نمرود او البرس » وكوثى ربّا « حبل اوتل ابراهيم » ودور كوريجالزو « عقرقوف » (١) والكوفة وبغداد والانبار والحيرة وسامرا وغيرها مما يطول تعدادهُ .

ولجميع هذه المدن بل ولكل واحدة منها حصة وافرة من آداب لغة العرب القديمة والمخضرمة والحديثة والعصرية . ولهذا لانغالي ان قلنا : العراق منبعث انوار العلم ومصدر معارف البشر وملتقى الاقوام المتنورة وملتقط انباء المؤرخين والاخباريين والاثريين والباحثين والمستقرين اصحاب التحقيق والتدقيق . تشهد على ذلك اوراقهم ومهارقهم ودفاترهم واسفارهم ومؤلفاتهم صغيرها وكبيرها حتى انها اكتظت منها .

ظل العراق حافلاً بالعرب الاولين حتى جاء الاسلام فكان العراقيون احفظ الاقوام باللغة الفصحى من غيرهم بها ، وهي تلك اللغة لغة البطحاء وام القرى ، لغة قريش

(١) نقل بعض الكتاب هذه الاسماء عن الافرنج فمسخوها مسخاً قبيحاً ولاسيما نقلة ديار مصر والشام . وصحفها ايضاً المستشرقون . ولهذا وجب التنبيه .

القبيلة الشريفة الكريمة السمحة ذات الجود والقرى.

العراق وان لم يكن صاحب هذه اللغة ومنشئها الاّ انه ابو آدابها،فهو الذي افرغها في قالب لغة عالمية وفسح لها موطناً بين سائر اللغات اخواتها وضرائرها،فكان هو اول مدرسة لها،بل مدرسة النبوغ، واصبح يضم بين احنائه وترائبه طوائف فنون الكتابة والكتاب وبين هؤلاء تجد النابغة الفذ،والمترجم النقاد،والخطيب المفوّه،والكاتب المجيد،ذلك الكاتب الذي يجمع الى كتابة الرسائل تصنيف الاسفار الضخمة والانشاء صحف القضاء ، ودواوين الجند ، واوارجة الخراج ، وجرائد المساحين،ودفاتر الشرطة .

الكتابة هي مبدأ تلك الحياة العقلية،وجرثومتها العلمية. ولهذا يحسن بنا ان نحصر الكلام في دائرتها لكي لايتسع الخرق علينا. فنقول :

٢ - تطورات الخط او ادوار الكتابة

للكتابة العربية تطورات شتى تنقلت فيها من حالٍ الى حالٍ،وتلك الاطوار لاتشمل حياتها المادية فقط،بل حياتها الادبية والعقلية واشهرها ثلاثة مواقف وهي:موقف في الحيرة قبل ظهور الاسلام بردح من الزمن ، وموقف في الكوفة،وموقف في بغداد. والثلاثة كلها جمعاء عراقية صميمة كما ترى .

٣ - الموقف الاول وهو طور الخط الحيري اوالانباري اوالجزم

اما شهادة المؤرخين على الموقف الاول فقد نطق بها كثيرون من مؤرخي العرب الاقدمين،الاّ اننا نجتزئ بذكر شهادة اقدمهم وهو البلاذري فقد قال في كتابه فتوح البلدان (ص ٤٧١ من طبعة الافرنج) ماهذا نقله (حدثني عباس بن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن ابيه عن

جده وعن الشرقي بن القطامي قال : اجتمع ثلاثة نفر من طيء ببقة [١] وهم : مرامر بن مرة [٢] واسلم بن سدرة وعامر بن جدرة [٣] فوضعوا

(١) كانت بقة من ارباض الحيرة ، يقام فيها سوق في عهد الجاهلية ، وهي موضع قريب من الحيرة كما نص عليه ياقوت في معجمه ، ولم تكن مدينة كما قال حضرة الاب العلامة المحقق لويس شيخو اليسوعي في المشرق (١٦ : ٦٨) اذ قال : وبقة مدينة (؟) قرب الانبار (؟ — كذا) ونعذر جهل الاب ديارنا العراقية لتزوحها عنه !

(٢) ويروى مرامر بن مروة والاول اصح واشهر وعليه المعول .

(٣) ويروى : عامر بن جدرة ، والاول اشهر واصح وافصح ، ويروى جزرة وهو جائز ويعتمد عليه لان اللفظة من اصل ارمي معناها عندهم كمعنى جدرة كاسترام بعيد هذا ، وذلك ان اسماء هؤلاء الذين وضعوا الخط العربي هم طائيون من حي يعرف ببولان وكانوا يسكنون الانبار (ابن النديم في الفهرست ص ٤) وقيل كانوا يسكنون بقة (البلاذري) ولكونهم كانوا نصارى كانوا يعرفون لغتين : لغة قومهم العرب ولغة اصحاب مذهبهم وهي السريانية ، فوضع مرامر صور الحروف والذي فصلها ووصلها اسلم واما عامر فوضع الاعجام (ابن النديم) فالاسماء التي اشتهروا بها لم تكن اسماءهم على ما في ظننا بل كانت القاباً لهم ، لقبهم بها خريجوهم او تلامذتهم بلغتهم السريانية ، فلما جهل معناها العرب ظنوها اعلاماً لهم فعربوهم بها ، فان مرامر بن مرة منحوتة من « مارا ماري بر ماري » ومعناها سيد السادة ابن السيد وبعبارة عربية تقابل معنى الارمية مقابلة صادقة : « شيخ شيوخ العلم ابن حامل لواء العلم » وذلك انهم يسمون الشيخ في العلم : « مارا » ثم يضيفونها الى مثلها بصيغة الجمع فتفيد المبالغة كما في العربية « شيخ الشيوخ » ثم اذا ارادوا الاشارة الى انه ورث العلم كابراً من كابر يزيدون الى تلك الاضافة كلمة « ابن » وبلسانهم « بر » مذيلة باسم او نعت للدلالة على ما يشبه او يعزى الى المنعوت المذكور فيقولون مثلاً : « فلان ابن العلم » ومرادهم العلامة او صاحب العلم ، كأنه لزيادة علمه اصبح العلم بالنسبة اليه بمنزلة الاب بالنسبة الى ولده ، ولهذا كثيراً ما ترد كلمة الابن عندهم بمعنى « ذي او صاحب » العربيتين ، كما ورد ذلك في العربية نفسها — قال اللغويون : يكنى بابن في بعض الاشياء عن الصاحب كابن عرس وابن لبون ونحوهما وقد قالت العرب ايضاً في مثل معنى السريان ومباهم « هو ابن بجدتها » والبجدة هي العلم ، ومعنى هذا التركيب : هو عالم العلامة او الدليل الهادي فيه .

هذا هو معنى مرامر بن مرة ، واما معنى اسلم بن سدرة (وهي تصحيف شليا بر سدرا) فهو : « التام العلم الخطاط » — ومعنى عامر بن جدرة (وهي تصحيف

الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية ، فتعلمه منهم قوم من اهل الانبار، ثم تعلمه اهل الحيرة من اهل الانبار . — وكان بشر بن عبد الملك اخو اكيدر بن عبد الملك بن عبد الجنّ الكندي ثم السكوني صاحب دومة الجندل ياتي الحيرة فيقيم بها الحين، وكان نصرانياً، فتعلم بشر الخط العربي من اهل الحيرة، ثم اتى مكة في بعض شانه فرآه سفيان بن امية بن عبد شمس، وابو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه ان يعلمها الخط فعلمها الهجاء . ثم اراهما الخط فكتبا . ثم ان بشراً وسفيان وابا قيس اتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فتعلم الخط منهم وفارقهم بشر ومضى الى ديار مضر فتعلم الخط منه عمرو بن زرارة بن عدس فسمي عمرو الكاتب . ثم اتى بشر الشام فتعلم الخط منه ناس هناك وتعلم الخط من الثلاثة الطائيين ايضاً رجل من طابخة كلب فعلمه رجلاً من اهل وادي القرى، فاتى الوادي يتردد فاقام بها وعلم الخط قوماً من اهلها .) اه .

ومما تقدم بسطه ترى انه من الصواب سمي هذا الخط بالخط الحيري اوالانباري اشارةً الى معدن نقله اووضعه اوتعلمه .

ويسمى ايضاً : « الجزم » الاّ ان العرب قالوا في سبب تسميته به قولاً جمعوا فيه الصحة الى الضعف وقد لخصه صاحب القاموس بهذه الكلم : « الجزم هذا الخط المولف من حروف المعجم لانه جُزم اي قطع عن خط

عمرا بن جدرا ويروى ايضاً في العربية جزرة وهي جزرا بالسريانية المرادفة لجدرا وهي لغة فيها) فهو العمار الحاذق او الماهر . ولعله سمي كذلك لانه عمر اكثر من صاحبيه الآخرين وهذه الالفاظ كلها القاب تشير الى اصلهم اومهنتهم اوحذقهم فيها . — وكفى بها شهادة على صدق ما ينسب اليهم من انهم هم الذين وضعوا الكتابة العربية ناقلين اياها من حروف اللغة الارمية اي السريانية او الاسطرنجيلية الى اشتاالكريقة .

حمير » فقوله « جزم اي قطع عن خط آخر صحيح إلاّ انه لم يصب في تعيين اسم هذا الخط بخط حمير . فالاصح الموافق للاكتشافات العصرية ولاقوال العرب انفسهم هو ان يقال لانه جزم عن خط السريان اي الاسطرنجيلي

واما الخط المسند او خط حمير فهو خط آخر لامشابهة ولا مناسبة له مع الجزم . والمسند عبارة عن حروف تكتب منفصلة بعضها عن بعض . وانما نسب الى حمير لما كان لملوكهم من النفوذ العظيم في العرب اولانه كان خاصاً بحمير فقط ومنهم اقتبسه سائر الناس في ديار الحبش وغيرها من البلاد المجاورة لليمن .

ولم تكن قريش تعرف المسند بل كانت تكتب بالجزم قبيل الاسلام ولذلك قال رجل كندي من اهل دومة الجندل يمن على قريش :

لاتجحدوا نعماء بشر عليكم * فقد كان ميمون النقيبة ازهرا
اتاكم بخط الجزم حتى حفظتم * من المال ماقد كان شتى مبعثرا
فاجريتم الاقلام عوداً وبداءً * وضاهيتم كتاب كسرى وقيصرا
واغنيتم عن مسند الحيّ حميراً * وما كتبت في الصحف اقلام حميرا

وما زال ذلك الخط يعرف بالجزم قبل الاسلام حتى اختط المسلمون « كوفة الجند » فاصبحت قاعدة تلك البلاد . فاستعمله اهلها فنزع منه لقبه الاول واشتهر بالكوفي . وهذا هو دوره الثاني .

الاّ انه اشتهر في ذلك العصر خط آخر هو اصل الخط النسخي المعروف في عصرنا هذا وهو الخط الذي كان يظن انه من وضع ابن مقلة . على ان مكتشفات المستشرقين والعرب العصريين فندت هذا القول الفائل وقد

ظهر للعيان ان للخط النسخي مشابهة عظيمة للخط النبطي الذي كان معروفاً عند تجار النبط في جوار سلع والبتراء ونواحيهما. وهذا الاكتشاف يحدو بنا الى ان نقول انه كان قبل ظهور الاسلام خطان عند العرب: خط له مشابهة كلية للاراميي الاسطرنجيلي وهو المعروف بالجزم وكان يكتب به العرب المجاورون لديار العراق. وخط كان له مناسبة بينة لخط الانباط وهو الخط النسخي. وكان يكتب به العرب المجاورون لديار الشام وكان يعرف بالخط الجليل «عن القلقشندي» وقد اشار الى وجود هذا القلم الاخير ابن النديم في كتابه اذ يقول: اول من وضع الخط العربي ... قوم من العرب العاربة نزلوا في عدنان بن اد ... فلما استعربوا وضعوا الكتاب العربي ...»

واما وجود مثال من الخط العربي النسخي قبل الهجرة فظاهر مما يحرز في دار الكتب الخديوية وقد كتب على البردي اوعلى الخشب اوعلى نحوهما مما لا يبقي ريباً في هذه الحقيقة التي اصبحت في قيد الحقائق المكينة التي لا تتزعزع. ونسبته الى ابن مقلة خطأ اللهم الا ان يقال لانه حسنه وصوره على ابدع صورة فيجوز ذلك من باب التوسع في وضع معاني الالفاظ لا من باب الحقائق التاريخية المقررة.

٢. الموقف الثاني وهو طور الخط الكوفي

كانت الغاية من وضع الخط تقييد مايراد اثباته على تراخي استار الازمان او اطلاع آخر على فكر الكاتب ان كان بعيداً عنه اوقريباً منه إن زماناً وان مكاناً. فكان رسم الحروف اونقشها اوحفرها ليس من الشان في شيء. وكان كاتب النعمان بن المنذر وغيره من زعماء العرب لا يعرفون

الا خط رسائل الملوك ورقعهم المنفذة الى العمال. ولم تكن كتابتهم كتابة تدوين العلوم لانها كانت يومئذٍ تابعة لحالة ادب العرب وكان اغلب العرب عهدئذٍ لا يعنون بشؤون العمران والتمدن الا عرب اليمن فانهم كانوا ارقى حالاً وحضارةً من سواهم.

فلما دان العرب بالاسلام وانتشر في البلاد هو والقائمون به واحتاج المسلمون الى مجاراة الامم الراقية المعاصرة لم رفضوا تلك السذاجة والبداوة وطرقوا بابي التدوين والتاليف ولا سيما من احتل منهم ديار الشام والعراق وما اضطروا الى وضعه كتب القضاء ودواوين الخراج لوجود الذميين في بلادهم ولتقييد مايوخذ منهم لكي لا يعودوا الى اخذه ثانية حفظاً لذمتهم من مال الظلم والخداع.

لبثت الكتابة بعيدة عن الترجمة في بادئ الامر لان العرب لم يكونوا قد احتكوا بعد بامم العالم احتكاكاً تاماً. بل كانوا في بدء الاختلاط لا يعرفون الحضارة ولا ضخامتها الزاهرة فصح لنا ان نسمي الخط الكوفي «بخط الفتوح والانتشار» لا خط الفن والعلم لان حظه من ذلك الاسم اوفى واوفر. الم تر اغلب الآثار العربية الاسلامية في شرق البلاد وغربها بالخط الكوفي كما ان اغلب المخطوطات القديمة هي بالخط النسخي الذي حسنه ابن مقلة فصار خط العلم والادب، خط الانشاء والتحرير، خط التنميق والتعبير. وهذا هو طور الكتابة الثالث.

الموقف الثالث وهو طور الخط النسخي

قد تقدم القول على ان النسخي كان معروفاً قبل الاسلام لكنه لم يكن

شائعاً الا في شمالي جزيرة العرب من جهة ديار الشام. فلما اخذ العرب بالتبسط في العمران ورأوا صعوبة الخط الكوفي، ولا سيما عدم انقياده لسرعة الكتابة اجابة لسرعة الخاطر، عدل الناس عنه الى الخط النسخي وكان ذلك في اواخر خلافة بني امية واوائل خلافة بني عباس على ما نقله القلقشندي في كتابه «صبح الاعشى في كتابة الانشا» المطبوع منه الجزء الاول في مصر القاهرة. ثم قال: «ان كثيراً من كتاب زماننا يزعمون ان الوزير ابا علي بن مقلة» المتوفى سنة ٣٢٨ هـ = ٩٣٩ م «هو اول من ابتدع ذلك وهو غلط. فانا نجد من الكتب بخط الاولين فيما قبل المئتين ما ليس على صورة الكوفي بل يتغير عنه نحو هذه الاوضاع المستقرة قال ابو جعفر النحاس في صناعة الكتاب: يقال ان جودة الخط انتهت الى رجلين من اهل الشام يقال لهما: الضحاك واسحق بن حماد وكانا يخطان (الجليل) (قلنا هو هذا الخط النسخي في اول عهده نقلا عن الانباط). قال صاحب اعانة المنشئ: وكان الضحاك في خلافة السفاح اول خلفاء بني العباس واسحاق بن حماد في خلافة المنصور والمهدي... وانتهت رئاسة الخط بمصر الى طبطب المحرر جودة واحكاماً... وكان اهل مدينة السلام يحسدون اهل مصر على (طبطب) و (ابن عبدكان) يعني كاتب الانشاء لابن طولون. ويقولون: بمصر كاتب ومحرر ليس لامير المومنين بمدينة السلام مثلهما.

قلت (اي القلقشندي) ثم انتهت جودة الخط وتحريره على راس الثلثمائة الى الوزير ابي علي محمد بن مقلة واخيه ابي عبد الله. قال صاحب

اعانة المنشئ : وولدا طريقة اخترعاها، وكتب في زمانهما جماعة فلم يقاربوهما وتفرد ابو عبد الله (بالنسخ) ؛ والوزير ابو علي (بالدرج) . وكان الكمال في ذلك للوزير وهو الذي هندس الحروف واجاد تحريرها وعنه انتشر الخط في مشارق الارض ومغاربها . . . ثم اخذ عن ابن مقلة محمد ابن السمساني ومحمد بن اسد وعنهما اخذ الاستاذ ابو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب المتوفى سنة ٤١٣ هـ = ١٠٢٢ م وهو الذي اكمل قواعد الخط وتممها واخترع غالب الاقلام التي اسسها ابن مقلة . . . ومن اخذ عنه محمد بن عبد الملك واخذت الشيخة المحدثة الكاتبة زينب الملقبة بشهدة ابنة الابري . وعنها اخذ امين الدين ياقوت » اه

ثم نبغ بعده ابو الدر ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ (= ١٢٢٥ م) ووليه ابو الدر ياقوت المستعصمي المتوفى سنة ٦٩٨ هـ (= ١٢٩٩ م) ومنذ ذاك الحين اشتهرت الاقلام المختلفة ونبغ بكتابتها ورسمها جماعة منهم عبد الصيرفي ويحيى الصوفي والشيخ احمد السهروردي وغيرهم مما يطول ذكرهم على غير طائل .

---

٧ : الشيخ محمد سعيد السويدي

Le Cheikh Mohammed- Sa'îd es-Souédy.

الشيخ محمد سعيد بن احمد بن عبد الله السويدي ولد في سنة ١١٨٠ هـ = ١٧٦٦ م . وكان احد مرشدي الطريقة النقشبندية . وقد برع في العلوم سيما في التصوف منها واخذ الطريقة فيه عن الشيخ خالد . والعلم عن والده وعمه الشيخ عبد الرحمن وغيرهما ودرس مدة مديدة في مدرسة